المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

دوافع الرفض في شعر المرأة
العصر العباسيّ أنموذجاً " قراءة تحليلية"

Motives of rejection in women's poetry
in the Abbasid era as a model 'Analytical reading'

بقلم الباحثة

فاطمة محمد إبراهيم مدحلي

باحثة دكتوراه في النقد الأدبي ـ قسم اللغة العربيَّة
كلية الفنون والعلوم الإنسانية ـ جامعة جازان
بالمملكة العربيَّة السُّعُوديَّة.

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الأول من إصدار ديسمبر ٢٠٢٤م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

دوافع الرفض في شعر المرأة العصر العباسيّ أنموذجاً" قراءة تحليلية"

فاطمة محمد إبراهيم مدحلي

باحثة دكتوراه في النقد الأدبي قسم اللغة العربيّة ـ كلية الفنون والعلوم الإنسانية ـ جامعة جازان ـ بالمملكة العربيّة السعوديّة.

البريد الإلكتروني: noortime12@hotmail.com

الملخص

يهدف هذا البحث إلى قراءة ظاهرة الرفض في شعر المرأة في العصر العباسي، وكشف دورها الفاعل في العملية الإبداعية، ومعرفة الدوافع المختلفة التي أدت إلى حدوث الرفض في شعر المرأة في العصر العباسي. وقد اقتضت طبيعة هذا البحث اتّباع المنهج الوصفيّ الذي يُعنى بوصف الظاهرة، والمنهج التحليليّ؛ للاستعانة به في تحليل النصوص الشعرية للمرأة في العصر العباسي، ومن ثَمَّ الكشف عن دوافع الرفض لديها. وخلص البحث إلى عدد من النتائج وكان أهمها: استسلام بعض الشاعرات للحزن ورفض متاع الحياة بعد فقد ذويهم وعدم تقبل فكرة الفراق، والتنفيس عن المشاعر المكبوتة من خلال الإبداع الشعري، المرأة التي تعاني تباريح العشق وفراق الحبيب لموت أو هجر تعبر عن رفضها هذا الواقع وتتلاشي ذاتها في الأسى والأحزان المؤدي بها إلى الهلاك والفناء لتلحق بمن فارقوها من الأحبة. كما تبرز ظاهرة الحب الإلهي لدى بعض الشاعرات ورفض الزواج أو مطامع الحياة ليجدن راحتهن في الخلوة للنسك والعبادة والتقرب إلى الله. وأن من مظاهر الرفض عند المرأة في عصر شاعت فيه الفتن والخلافات التخلي عن فكرة الانتقام في سبيل الحفاظ على لحمة الدولة الإسلامية، وعدم التفرقة بين المسلمين، والعمل على التماسك وتقوية بنيان الأمة.

الكلمات المفتاحية: دوافع الرفض، شعر المرأة، العصر العباسي.

Motives of rejection in women's poetry in the Abbasid era as a model 'Analytical reading'

Fatima Muhammad Ibrahim Madhali
Doctoral researcher in Literary Criticism, Department of Arabic Language, College of Arts and Human Sciences, Jazan University, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: noortime12@hotmail.com

Abstract

This research aims to read the phenomenon of rejection in women's poetry in the Abbasid era, reveal its active role in the creative process, and know the various motives that led to rejection in women's poetry in the Abbasid era. The nature of this research required following the descriptive approach, which is concerned with describing the phenomenon, and the analytical approach. To use it in analyzing women's poetic texts in the Abbasid era, and thus revealing their motives for rejection. The research concluded with a number of results, the most important of which were: some female poets surrendering to grief and rejecting life's pleasures after losing their loved ones and not accepting the idea of separation, and venting pent-up feelings through poetic creativity. The woman who suffers from the excruciating pain of love and separation from her lover due to death or abandonment expresses her rejection of this reality and herself disappears. In grief and sadness that lead her to destruction and annihilation, to join those loved ones who left her. The phenomenon of divine love also appears among some female poets, rejecting marriage or life's ambitions in order to find comfort in seclusion for asceticism, worship, and getting closer to God. One of the manifestations of rejection among women in an era in which strife and disagreements are widespread is abandoning the idea of revenge in order to preserve the unity of the Islamic State, not to differentiate between Muslims, and to work on cohesion and strengthening the structure of the nation.

Keywords: motives of rejection, women's poetry, the Abbasid era.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ارتبط الإبداع الشعري بالدوافع النفسية التي شكَّلت حافزًا لتعبير الشعراء عن انفعالاتهم، سواء كانت محركات الدافعية مخاوفَ أو حزنًا ورغباتٍ أو عشقًا، تُجَاه مجتمعهم وقضاياه على الصعيد الإنساني والأخلاقي والاجتماعي.

فكل قضية يتبنَّاها الإنسان ويدافع عنها ينبغي أن تكون نابعةً من روحه وفكره، وتصبح جزءًا من تكوينه؛ تعالج موقفه الذي يحقق ذاته، خاصة إذا كانت لديه هبة التعبير وصياغة اللفظ ونَظمه المتجسدة في صورة شاعرة فطنت للحياة، وخبرت قضاياها، ووَعَتْها بكيانها الأنثوي، وشاعريتها المبدعة؛ من خلال موقف يرفض الاستسلام والخضوع لما يُفرض عليها، وترغب في تغييره.

وفي الأسطر التالية تسعى الباحثة في هذه الورقة البحثية إلى كشف دوافع الرفض عند الشاعرة العباسية من خلال الوقوف على عدد من المرتكزات هي: الدوافع الإنسانية، الدوافع الأخلاقية، الدوافع الاجتماعية.

مشكلة البحث:

تكمن المشكلة البحثية في الكشفِ عن دوافع الرفض في شعر المرأة في العصر العباسي.

التساؤلات البحثية: من المفترض أن يجيب هذا البحث عن التساؤلات التالية:

- ما المقصود بدوافع الرفض؟
- ما الدوافع الإنسانية للرفض في شعر المرأة في العصر العباسي؟
- ما الدوافع الأخلاقية للرفض في شعر المرأة في العصر العباسي؟

– ما الدوافع الاجتماعية للرفض في شعر المرأة في العصر العباسي؟

أهداف البحث:

– يهدف هذا البحث إلى قراءة ظاهرة الرفض في شعر المرأة في العصر العباسي، وكشف دورها الفاعل في العملية الإبداعية.

– معرفة الدوافع المختلفة التي أدت إلى حدوث الرفض في شعر المرأة في العصر العباسي.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث اتّباع المنهج الوصفيّ الذي يُعنى بوصف الظاهرة، والمنهج التحليليّ؛ للاستعانة به في تحليل النصوص الشعرية للمرأة في العصر العباسي، ومن ثَمَّ الكشف عن دوافع الرفض لديها.

الدراسات السابقة:

إن الدراسات السابقة هي زاد الباحث، وبها يستعين في إثراء بحثه، والابتعاد عمَّا تناوله الباحثون من قبل؛ تجنبًا للتكرار، وتعميق النقاط البحثية التي لم تُدرسْ من قبل، ومن الدراسات السابقة التي تتعلق بموضوع هذا البحث ما يلي:

▪ **<u>الدراسة الأولى:</u>** دراسة بعنوان **(الرفض في الشعر العربي قبل الإسلام)**، عارف عبدالله محمود الأحبابي، رسالة ماجستير، جامعة تكريت، العراق، ١٩٩٩م، جاءت في تمهيد يضم تعددية مصطلح الرفض، وتطور مدلوله، وأشار لأهم بواعث الرفض عند الشعراء، وحوى الفصل الأول الرفض الاجتماعي للقيم السلبية، بينما تناول الفصل الثاني الرفض في ضوء القيم الفكرية والرؤية الكونية، وكان الفصل الثالث عبارة عن دراسة تحليلية لبعض النماذج الشعرية شملت: الصورة الفنية، والتراكيب، والموسيقى

الشعرية، ونماذجه كانت لشعراء، ما عدا ثلاثة عشر شاهدًا كانت للمرأة على سبيل الاستئناس بموقفها وليس الإلمام به، بخلاف الدراسة الحالية التي تختص بالشعر النسوي وخصوصية فكرة الرفض فيه في المقام الأول.

▪ **الدراسة الثانية**: دراسة بعنوان **(الرفض في الشعر العربي في عصر صدر الإسلام عصر النبوة والخلفاء والراشدين)**، د. بشار سعدي إسماعيل، دار مجدولاي للنشر والتوزيع، عمَّان- الأردن، ط١، ٢٠١٣م (كتاب مطبوع)، وتروم هذه الدراسة الكشف عن قيم الرفض الاجتماعية والفكرية، ودراسة فنية تحليلية تتمثل في: الصورة الفنية، واللغة، والتراكيب، والموسيقى في نماذج من شعر الشعراء في عصر صدر الإسلام فقط، ولا توجد بها نماذج لشعر النساء غير نموذج واحد للشاعرة خولة بنت الأَزْوَر في رفض الاستسلام لسلطة الروم، بالإضافة إلى أن هذه الدراسة اختصت فقط بعصر صدر الإسلام، أما الدراسة الحالية فتتسع لتشمل شعر الشواعر منذ العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي.

▪ **الدراسة الثالثة : الرفض في الشعر العربي المعاصر**، للباحث: سعيدي محمد، وهو بحث منشور بمجلة الأثر- جامعة: قاصدي مرباح- ورقلة، العدد السابع ٢٠٠٨، بدأ البحث بتعريف الرفض، وتناول شعرية الرفض، وأسباب الرفض عند الشاعر مصطفى محمد الغماري، وتوصل الباحث إلى عدد من النتائج في نهاية بحثه.

▪ **الدراسة الرابعة: الرفض في شعر الجواهري- من أنماطه وتجلياته**، للباحثين: رفل حسن طه الطائي، وحربي نعيم محمد الشبلي، وهو بحث منشور في: مجلة أهل البيت عليهم السلام العدد العاشر، سنة ٢٠١٠، وقد تناول هذا البحث موضوع الرفض في شعر الجواهري بالدراسة والتحليل،

وقسمه الباحثان إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، ودرس المبحث الأول أبرز أنماط الرفض في شعر الجواهري وهما: الرفض السياسي والرفض الاجتماعي، وتناولا في المبحث الثاني أهم تجليات الرفض في شعره، وانتهى البحث بخاتمة مثَّلت أبرز النتائج التي توصل إليها.

- **الدراسة الخامسة: دوافع الرفض عند الشاعر محمد بلخير**، للباحث: لخضر حشلافي، بحث منشور بمجلة التراث- جامعة الجلفة، العدد التاسع سنة ٢٠١٣، وفيه تناول الباحث دوافع الرفض عند محمد بلخير، وتناول حياة الشاعر، وتكلم عن دوافع الرفض عنده، ومنها: الاستعمار الفرنسي، والنزعة الصوفية للشاعر، والحالة الاجتماعية، والنظام القبلي، والبيئة الاجتماعية، وغيرها من الدوافع، وفي النهاية ذكر الباحث النتائج التي توصل إليها.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن ينقسم إلى: مقدمةٍ، وتمهيد، وثلاثة مباحث، ثم خاتمة بها أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة، وقائمة بالمصادر والمراجع التي استعانت بها الباحثة، وتفصيل ذلك ما يلي:

المقدمة، وقد تناولت فيها ما يلي:

- مشكلة البحث.
- التساؤلات البحثية.
- أهداف البحث.
- منهج البحث.
- الدراسات السابقة.
- خطة البحث.

التمهيد: وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: معنى الدوافع.
- المطلب الثاني: أهمية الدوافع في تأصيل ظاهرة الرفض.

دوافع الرفض عن المرأة في العصر العباسي، ويحوي مقدمة و ثلاثة مباحث، هي:

- المبحث الأول: الدافع الإنساني.
- المبحث الثاني: الدافع الأخلاقي.
- المبحث الثالث: الدافع الاجتماعي.

الخاتمة.

قائمة المصادر والمراجع.

التمهيد

تناولت فيه مطلبين:

المطلب الأول: معنى الدوافع.

المطلب الثاني: أهمية الدوافع في تأصيل ظاهرة الرفض.

المطلب الأول: معنى الدوافع

الكينونة المعنوية للدوافع: إن الدافع يأتي بمعنى "ذلك الإلحاح الداخلي النابع من الشاعر باتجاه الوسط"(١). فالدافع عبارة عن محرك، وغالبًا ما يطلق هذا اللفظ على "الدوافع الانفعالية أو اللاشعورية التي تحرك نشاط الفرد، وتوجهه إلى غاية معينة"(٢).

ويشير فرويد في تفسيره لنظرية التسامي أن المصدر الحقيقي للفن هو اللاشعور، فهو يعطي أهمية للطبيعة الفردية للإبداع، فالطبع الفني نتاج فردي يظهر كوامن النفس المبدعة التي تحمل رواسب الطفولة، وتأثير التقاليد، والبيئة تظل متفاعلة في أعماق النفس في اللاوعي ويحولها إلى موضوع ذي قيمة ثقافية واجتماعية(٣).

ولأنَّ للمرأة دورًا بارزًا في المجتمع العربي سينظر في هذه الورقة البحثية إلى نماذج من دوافع الرفض عند الشاعرات في العصر العباسي وأبعادها النفسية والاجتماعية.

---

(١) البواعث النفسية في شعر الفرسان عصر ما قبل الإسلام: دراسة نفسية تحليلية، ليلى نعيم الخفاجي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، العراق، ٢٠٠٢م، ص٤.

(٢) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، ١٩٨٢م، الجزء الأول، ص٥٥٧.

(٣) يُنظر: الموجز في التحليل النفسي، سيجمود ند فرويد، ترجمة سامي محمد علي، وعبد السلام القفاش، دار المعارف، القاهرة- مصر، ١٩٦٢م، ص ١٣١- ١٣٢.

المطلب الثاني: أهمية الدوافع في تأصيل ظاهرة الرفض

يشكل الرفض معارضة لنظام أو لمظاهر الحياة في المجتمع العباسي، تحركه دوافع المرأة، سواء كانت حرة أم جارية تصبو إلى تحقيقها في بيئتها ومحيطها؛ فنتيجة الفتوح الإسلامية في العراق وفارس والشام ومصر التي تحمل موروث الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية؛ امتزج العرب بهذه الشعوب وتأثروا بهم، في بناء القصور والدور وحياة البذخ والترف والمجون، وكثرة الجواري والغناء ومجالس السمر التي كان يختص بها الخلفاء والوزراء والقواد وعِلْية القوم وحواشيهم ومن اتصل بهم من المغنيين والشعراء، فقد كانوا يحتكرون لأنفسهم الأموال والموارد، أما الشعب فقد كان يعيش حياة الفقر والبؤس والاستعباد والتعنيف(١).

ونتيجة هذا التبيان تبرز ظاهرة تعبر عن هذا التباين ما بين مؤيد ومعارض رافض لهذا الواقع يدفعه إلى ذلك محركات لاشعورية مكبوتة في من خلال الإبداع الشعري، وهذا يقودنا إلى طرح سؤال عن ماهية دوافع الرفض عند المرأة في العصر العباسي؟

(١) يُنظر: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثامنة، القاهرة- مصر، ١٩٦٦م، ص٤٤-٤٦.

دوافع الرفض عند المرأة في العصر العباسي

قد يمتلك المبدع قدرة فائقة يستطيع بعمله الإبداعي أن يبتعد عن واقعه؛ لأنه لا يستطيع التوافق معه، ويعجز عن إشباع رغباته، من خلال عمل إبداعي يجسّد تأملاته القيمة في الحياة الواقعية،(١) وفي الوقت ذاته لا يستطيع أن ينسلخ من عالمه ومجتمعه، وبيئته التي تأثر بها، فالإنسان -كما يرى ابن خلدون- "ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقًا وملَكة وعادةً تنزل منزلة الطبيعة والجلبة، واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرًا".(٢)

ومن ثَمَّ لا يمكن الفصل بين العمل الأدبي وصاحبه في أثناء تفسيره أو تحليله؛ بل لا بدَّ من الوقوف على ما يمر به من بواعث ودوافع تلهب إحساسه الداخلي، وتسيطر عليه، وهي ما تساعد الناقد على فهم العمل الأدبي(٣).

وفي هذا السياق يشير الدكتور عز الدين إسماعيل إلى أن العمل الفني "تدفع إليه أسباب هي التي تدفع إلى الحلم، ويحقق الرغبات المكبوتة في اللاشعور ما يحققه الحلم، وهو كذلك يتخذ من الرموز والصور ما ينفس به عن هذه الرغبات، ويخلق بين هذه الرموز أو الصور علاقات بعيدة وغريبة في الوقت نفسه. ومن هنا تأتي المتعة التي يجدها الفنان في إخراجه عمله الفني إلى الوجود"(٤).

---

(١) يُنظر: الشعر الجاهلي دراسة في تأويلاته النفسية والفنية، سعيد حسون العنبكي، دار دجلة، الطبعة الأولى، عمَّان- الأردن، ٢٠١٠م، ص١٥٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون. الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ت: كاترمير، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ج١، ص١٢٥.

(٣) يُنظر: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي- دراسة، عبدالقادر فيدوح، مطبعة اتحاد الكتاب العربي، الطبعة الأولى، دمشق- سوريا، ص١٧٢.

(٤) التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار العودة، د.ط، بيروت- لبنان، ٢٠١٤م، ص٤٨.

وقد استطاعت المرأة أن تسهم في الحركة الأدبية، فكانت لها مكانة واضحة منذ العصر الجاهلي، واستمرت مع إيقاع حضارات العصور المتتالية، وخاصة في قصور الخلافة العباسية من الأميرات ونساء الخلفاء إلى من تعلقوا بهن من الجواري الشاعرات، اللائي برعن في النظم والحوار الشعري والمناظرات الفنية التي حملت الكثير من مشاعرهن وانفعالاتهن وأظهرت طبيعتهن الأنثوية"[١]، إلى المرأة الزاهدة والعابدة في متاع الحياة.

فقد كان لمشاركة المرأة في الحركة الأدبية في العصر العباسي أبعاد ومبادئ تلزم بها، وكذلك لها خليفات ودوافع مختلفة؛ أدت بالشاعرة للتعبير عن موقفها، وسوف نقوم في هذا الدراسة باستجلاء بعض من دوافع شعر الرفض عند المرأة بمختلف جوانبها: الإنسانية، والاجتماعية، والأخلاقية.

(١) يُنظر: الشعر النسائي في أدبنا القديم، مي يوسف خليف، مكتبة غريب، الطبعة الأولى، القاهرة- مصر، ١٩٩١م، ص٢١٠وما بعدها.

المبحث الأول: الدافع الإنساني

إن الدافع الإنساني للرفض يقوم على التعبير عن الذات الشاعرة من حيث الآلام والمعاناة النفسية فلا ينحصر في الحاجات الفسيولوجية؛ من الخوف والغضب، والحب والكره، والحاجة إلى الأمن، والحاجة إلى التقدير الاجتماعي، أو الشعور بالنقص أو الذنب، أو الحاجة إلى التعبير عن الذات الإنسانية، يضاف إلى ذلك أهداف الإنسان، وفلسفته في الحياة، وضميره(١).

تتباين اتجاهات الشاعرات في التعبير عن مواقفهن حسب دوافعه، فقد يكون الحزن الشديد المرتبط بالفقد وهلاك النفس من العشق، والحنين.

تحيط بالإنسان المحن والخطوب التي لها وقع وتأثير عليه، وأن أجلها الموت، فكل له طريقة في تقبله ومواجهة وقعه حتى لا يستولي عليه الجزع ويكون فريسة لليأس ويكتوي به، والشعراء والشاعرات كسائر البشر، وقد عبروا عنه بشعر صادق يبوح بلواعج النفس من مشاعر الحزن والأسى على من فقدوهم، وقد تتباين مواقفهم وردود أفعالهم في مواجهة فقد ذويهم، فنجد البعض يستسلم لعظيم مصابه ويرفض متع الحياة التي لم تعد ذات قيمة لديه بعد موت عزيز عليه على نحو ما ذكرت الشاعرة ثمامة بنت عبد الله عندما تُوفي أبوها سوار القاضي البصري، فقالت ترثيه عندما استولى عليها الحزن، فقد جفا النوم عينها بعد موته، فأنشدت تقول:

جفا جَفْني الكَرى بعدَك وانهلَّت مآقيهِ
أمِنْتُ الدهرَ لمَّا متَّ فلتطرقْ دواهيهِ
سقى قبَركَ دانٍ مُسْبِلٌ واهٍ عزاليهِ

(١) يُنظر: أصول علم النفس، أحمد عزت راجح، دار الكاتب العربي، الطبعة السابعة، القاهرة- مصر، ١٩٦٨م، ص٦١-٦٣.

ولاحَ جديـــــــــدُ الـــــــــرَّو ضِ مفتـــــــــرًّا بواديـــــــــهِ[١]

فتصف حالها بعد موته وقد سالت الدموع منهلة على فراقه، فقد غـاب عنها شعور الأمان بغيابه، وبعد فراقه لم تعد تخشى طوارق الدهر وأحداثـه، ولا تملك إلا أن تدعو لقبره بالسقيا لينعم فيه ويرقد بسلام، فقد تحولت الـدنيا في عينها من بعده، فتشبه حياتها في وجوده بالروضـة الجميلـة المتفتحـة، وتصف لحظة فراقه بأن هذه الروضة ذبلت واغبرّت من شدة الحزن عليـه، فلم يعد لها ذلك الرونق البديع بعد رحيله، وهنا نجد وصـفًا بـديعًا لحـزن الشاعرة على فقيدها فهي ترفض الحياة التي شحبت ألوانها في عينها، ولم تعد تتمتع بها بعد رحيل أحبتها وفقدهم.

كما نجد هذا الموقف عن الشاعرة عنان بنت عبد الله جاريـة النَّطَّـاف الذي رثته بعد موته بهذه الأبيات التي تقول فيها:

نَفْسِي على حَسـراتها موقوفـة فَوَدِدْتُ لو خَرَجَتْ مَـع الحَسـراتِ

لَو في يَـدَيَّ سِـياقُ أيـامي إذًا خَطْـــرَفْتُهُنَّ تعجُّلًـــا لوفـــاتي

لا خيرَ بَعْدَكَ فـي الحيـاةِ وإنَّمـا أبكِي مخافةَ أن تَطـولَ حيـاتي[٢]

تصف مأساتها وتتملكها الحسرة على فقد مولاها النطاف، فتعجز عـن مواجهة الحياة والمصير المجهول بعد موته، فتتمنى أن تموت وتلحق بـه إن كان بيدها أمر وفاتها، فلا ترى في الحياة خيرًا بعد موت سيدها، وتخـاف أن

---

(١) نزهة الجلساء في أشعار النساء، جلال الدين السيوطي، ت: عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، الطبعة الأولى، القاهرة – مصر، ١٩٨٦م، ص ٣٦.

(٢) الإماء الشواعر، أبو الفرج الأصفهاني، ت: جليل العطية، دار المعارف، الطبعة الثانية، سوسة- تونس، ١٩٩٨م، ص ٤١، ونساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، ابن الساعي الخازن البغدادي، ت: مصطفى جواد، دار المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة- مصر، ١٩٦٨م، ص٥٢.

يطول عمرها في الحياة بعده فيطول عليها أمد الفراق، ويظهر من الأبيات أن الشاعرة قد تعلقت بسيدها وبشعور الأمان في وجوده وباعث حزنها عليه ورفضها لطيب الحياة ومتعها هو مخاوفها من قادم الأيام من دونه، وفقدها للرعاية التي كان يحفها بها، فنجد الشاعرة تأتي بأساليب فنية تهدف إلى إشراك المتلقي في معاناتها مثل الجناس وتجربتها الشعورية في البيت الأول للفظ يدل على مقدار الحزن والألم في (حسراتها – الحسرات)؛ مما يعزز الجانب الإيقاعي لأبياتها ويضفي بعدًا جماليًّا، ويخلق تجربة شعورية تلامس المتلقي، وتجعل حزنها أكثر وضوحًا، ونجد الشاعرة تأتي في عجز الأبيات الثلاثة تحمل دلالة لرغبتها في الرحيل واللحاق بمن فقدت، فترجو لو خرجت نفسها مع زفرات الحسرة، والثاني رغبتها في تعجيل وفاتها، والثالث مخاوفها من طول العمر بعده، وهذا يجسّد رفضها لواقعها وعدم تقبُّل وفاة سيدها.

ولا تذهب محبوبة جارية المتوكل بعيدًا من هذ السياق إلا أنها بالفعل ظلت حزينة هاجرة لكل لذة على موت مولاها حتى ماتت، ولها فيه مراثٍ منها قولها:

أيُّ عَيْشٍ يطيبُ لي	لا أرى فيه جعَفْرَا
مَلِكًا قد رأتْهُ عيـ	ـني قتيلًا مُعَفَّرا
كُلُّ مَنْ كانَ ذا سقا	مٍ وحُزْنٍ فَقَدْ بَرَا
غير محبوبة التي	لو تَرَى الموتَ يُشترَى
لاشترتْهُ بما حَوتْه	يداها لتُقْبِرَا
إن موتَ الحزين أطيبُ	منْ أنْ يُعَمَّرَا[1]

(١) المستظرف من أخبار الجواري، جلال الدين السيوطي، ت: صلاح المنجد، ص ٦٧، و الإماء الشواعر، أبو الفرج الأصفهاني، ت: جليل العطية، ص١٢٧.

تفتتح أبياتها باستفهام استنكاري لمن يريد منها أن تنسى موت سيدها وتتزين وتعود لحياتها السابقة، بأنها عندما لا ترى الخليفة المتوكل لا يطيب لها العيش، ونظرًا لدرجة قربها منه تذكر اسمه (جعفر)، وتستدرك في البيت التالي ذلك وتنعته بالملك مصورة مشهد اغتياله وتخضبه بالدماء، وكيف إذا كان من تهواه فهذا المشهد سيظل ماثلًا أمام عينيها، وتذكر أن كل ذي سقم أو حزن قد يبرأ إلا هي، وتستثني نفسها من ذلك لأنّ حزنها دائم، وتوظف اسمها الصريح لتؤكد على وفائها لذكراه، ولو كان بمقدورها شراء الموت لفعلت لتلحق به، فإن الموت للحزين أطيب من أن يُعَمَّر مع تباريح الاشتياق للراحلين وآلام الفراق.

كما يوجد جانب آخر من الدوافع الإنسانية لرفض المرأة وهو جانب العشق المهلك، ويتجسد في معاناة الوجد والصبابة، واعتراف الشاعرة بهلاك الذات وخيبة الأمل من عدم تمكنها من وصل محبوبها، ونجد ذلك في شعر البارعة بنت عوف بن سهم التي تعاني تباريح الحزن الشديد على فراق زوجها الذي طال شوقها إليه منذ خمس سنين لارتحاله إلى اليمن لقلة ذات يده، فكانت الأشعار لتستريح لذكره، وقد سمعها هارون الرشيد وهي تردد أبيات الشعر وتتبع كل بيت برنَّة وأنَّة، وتفيض عبراتها ويشاركها من يجلسن حولها بالبكاء، وبعد أن عرف الخليفة أمر عامله باليمن بحمل زوجها سليمان بن هام إلى بغداد، ومنحه عشرين ألف درهم، فأخذ المال وعاد إلى أهله[١]، ومن شعرها هذه الأبيات:

هل أرى وجهَ حبيبٍ شفني، بعدَ فقدانيه أفرط الجزعْ

(١) يُنظر: أخبار النساء، ابن الجوزي، ت: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، ١٩٨٢، ص ٢٥٠-٢٥٢.

قد برى شـوقي إليـه أعظمـي، وبلـى قلبـي هـواه وفـزعْ
ليـت دهـرًا مـرَّ والقلـبُ بـه جذِلٌ والعـيشُ حلـوٌ قـد رجـعْ
وعفـت آثـارُهُ منـه فيـا، ليت شعري ما به الـدهرُ صـنع؟
قد تمسـكت علـى وجـدي بـه بجميلِ الصـبر لوكـان نَفَـع.(١)

ترجو الشاعرة رؤية وجه محبوبها، فقد افتقدته وأصابها الجزع الشـديد والحنين إليه حتى نحل جسدها وبرزت عظامها، وأنهك الشوق قلبها، وهـي تحن إلى أيام اجتمعت به تحلو بقربه ووصاله، فهي أقرب للهلاك إذا لم يرجع فقد بلغ منها الحزن ما بلغ، فكلما طال ذلك الفراق طال بها الشوق والولـع، فهي تسأل عن أخباره وماذا فعلت به الأيام، وتبين أنها لا تطيق الصبر على غيابه وإن حاولت ولكن لم يجدِ نفعًا، فظلت تبكي وتغص بالعبرات والأنـات حتى عُرفت بذلك في قومها، فالشاعرة ترفض معاناة الفراق والنـأي يـدفعها العشق والحرمان من لقاء محبوبها؛ مما قد يؤدي بها إلى الهلاك.

ومن نماذج وفاء المرأة ما ذكره الأصمعي للرشيد عندما بعثه لبادية البصرة ليأخذ من تحف كلامهم وطريفه، فعندما مر بالمقابر وإذا بجارية عليها ثياب مصبغات وحلي وزينة تبكي أشد البكاء فسألها عن شأنها فأنشدت(٢):

فإن تسألاني فِيمَ حُزْنـي؟ فـإنني رهينةُ هـذا القبـرِ يـا فتيـان.
أهابُك إجلالًا وإن كنتَ في الثرى، مخافة يـوم أن يَسُـووَكَ مكـاني
وإني لأستَحْيِيكَ والتـرابُ بيننـا كما كنتُ أستحييك حـين ترانـي.

وعندما سألها عن تناقض حزنها وزيها أجابته:

يا صـاحبَ القبـرِ، يـامَنْ كـان حيًّا، ويُكثرُ في الـدنيا مُواسـاتي

---

(١) أخبار النساء، ابن الجوزي، ص ٢٥١.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه، ص ٢٥١.

أزورُ قبرَك في حِلْيٍ وفـــي حلَـــلٍ، كأنني لستُ من أهلِ المُصِـــيبات؛
فمَن رآني، رأي عَبْـــرى مفجعـــةً مشهورَة الزِّي تَبْكي بين أمواتي[١]

توضح الشاعرة للأصمعي أن سبب الحزن الذي تملكها فـــراقُ حبيبهـــا الذي دفن في هذا القبر الباكية عليه وأنها رهينة جواره، وأنها تُكِنّ لـــه كـــل إجلال واحترام حتى بعد وفاته، وقد وراه الثرى، وأنها تخشى أن تسلك مسلكًا لا يعجبه أو يستاء منه، فلا فرق في هبيته في ناظرها سواء كان فوق الثرى أم تحته، وعندما سألها الأصمعي عن تزينها عند زيارة قبر محبوبها، أجابتـــه منادية صاحب القبر الذي عهده أنسه ومواساته لها، بأنها عندما تزوره لا تريد أن تخالف ما عهده فيها من هيئة اللقاء، وإن عاب عليها من يراه تجمُّلها لأن يغلب على أهل الميت الشعث وقلة الاهتمام بالمظهر لهول الفجيعـــة، ومـــن يقترب منها يعرف حجم حزنها وألمها، وما تكابده من الشقاء والحسرة.

وتذكر الراوية أن الأصمعي نقل خبرها إلى الرشيد الـــذي أمـــره بـــأن يطلبها من وليها زوجة له لأنه طلبها للزواج، فزوجها وهي لا علم لها بـــذلك وحملوها إلى المدائن، فلما عرفت بالخبر شهقت شـــهقة فماتـــت[٢] ولحقـــت بمحبوبها وفاءً له وبقاء على عهده ورفضًا لمن سواه.

وقد تبدي المرأة رفضها لفكرة الفراق النابع من العشق المتلف للـــروح في حوارها مع حبيبها كما ذكرت جارية أشجع السلمي ريم التي تجد به وجدًا شديدًا، فكانت تحلف له أنها إن بقيت بعده لم يحكم عليها رجل أبـــدًا. فقـــال يخاطبها:

إذا غمضـــــت فـــــوقي حفيـــــرةً من الأرضِ فابكيني بما كنت أصنع

---

(١) أخبار النساء، ابن الجوزي، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه، ص ١٢٦-١٢٧.

تعزيك عني بعد ذلك سلوةٌ، وأن ليس فيمن وارت الأرضُ

فأجابته ريم:

ذكرت فراقًا والفراق يصدع، وأيُّ حياةٍ بعدَ موتك تنفعُ

إذا الزمنُ الغدَّارُ فرَّق بيننا، فما ليَ في طيبٍ من العيش مطمعُ

فلو أبصرتْ عيناك عينيَّ أبصرتْ، شآبيب حدرٍ غيثها ليس تقشعُ[1]

يطلب أشجع السلمي من الجارية أنه إذا فارق الحياة أن تبكيه وتذكر محاسنه وصنائعه لعلها تكون لها عزاء وسلوة بعد فراقه، لتجيبه بأنها بفراقه ستفارق بعده الحياة، وأنها ليس لها مطامع في الحياة بعده، فقد انطفأ بريقها في عينيها بعد أن أغمض الموت عينيه وفرق بينهما.

وإذا أمعنا النظر نجد معجم الفراق يتكرر (فراقاً، الفراق، فرّق)، ويسيطر على لغة الشاعرة ويحمل دلالات عميقة مرتبطة بالفقد مؤكدة حالة شجن وعشق الشاعرة لمن لا تقوى على فراقه، فعادة يكرر الإنسان ما يجسد مخاوفه وخاصة إذا تعلق بآخر، فعند فراقه قد يعيش عزلة عن الآخرين، وغرض الجارية تعزيز ثقة أشجع السلمي في مشاعرها العميقة مبلغ عشقه منها، والحالة التي قد تصل إليها بعد موته، وبالفعل بعد موت أشجع السلمي امتنعت عن الزاد، فلا تأكل طعامًا ولا تذوق شرابًا، حتى ماتت ولحقت به ودفنت إلى جواره.[2]، فقد دفعها العشق الشديد الذي لا يتقبل فكرة الفراق ورحيله حتى هلكت وتوارت في التراب بجانبه.

كما يبرز دافع آخر يجسد مشاعر الذات الإنسانية وهو الحنين إلى موطن ارتبط به وشكل بعده عنه شعور غربة واشتياق وللشاعرات في ذلك

---

(١) أخبار النساء، ابن الجوزي ، ١٤١ص-١٤٣.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه، ١٤٣.

مسلكان: أحدهما ارتباط الوطن بالمحبوب فترى في قربه الموطن، وتحن إلى دياره، وتتشوق إلى لقياه، فتذكر أيامها معه وتستحضر لحظات انقضت تود أن ترجع إليها، ويتجلى هذا المشهد في شعر تقية الصورية في الحنين:

نأيْتُ ومَا قَلْبي عَنِ النأيِ بالراضِي فلا تَغْتَررْ منى بصَدّي وإعْراضِي
وإني لمشتاق إليهم متَيَّمٌ وقد طعنوا قلبي بأسمر غَرَّاضِ
إذا ما تذكرت الشام وأهلَه بكيت دمًا حزنًا على الزمن
ومُذْ غِبتُ عن وادي دمشق كأنني يُقَرَّضُ قلبي كُلَّ يومٍ بمقراضِ
أبيتُ أراعي النَّجْمَ والنجم راكدٌ وقد حجبوا عن مُقْلَتَيَّ طيبَ
فهل طارقٌ منهم يُلِمُّ بناظري فإن لقاءَ الطَّيْفِ أكثرُ أغراضي
لعلَّ الليالي أن تجرَّدَ صارمًا على البين أو يَقْضي لها حكمُ

تذكر الشاعرة لمن تخاطبه أن لا يغتر بما أظهرت من الصد والإعراض، فقد فُرض عليها التنائي والتباعد عن المحب، وقد بلغ منها الشوق مبلغه وإنها متيمة به فقلبها جريح، وإذا ما غشيتها الذكرى بكت دمًا على الشام وأهله حزنًا على أيام مضت وعهود سلفت وكأنما يقرض قلبها بمقراض مذ غابت عن دمشق تبيت ليلها ساهرة كأنها ترعى النجوم الثابتة دون حراك، وقد حُجب عن عينيها النوم اللذيذ ترجو لقاء طيف محبوبها الغائب، فلقاؤه أقصى مطالبها، وتعلق آمالها في قادم الليالي بأن تنصفها فتعمل سيفها الصارم في البين والفراق حتى يكون اللقاء وتجتمع بمن يهوى قلبها، فالشاعرة ترفض الفراق ويعزوها ويدفها لذلك شعور الحنين والوجد للغائب عنها.

---

(١) نزهة الجلساء في أشعار النساء، جلال الدين السيوطي، ت: عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، الطبعة الأولى، القاهرة – مصر، ١٩٨٦م، ص ٣٤- ٣٥.

كما نجد هذه الصورة في أبيات حبش مولاة الأحنف التي كانت تصف ما اعتراها من فراق أحبتها من ألم وأحزان فتقول:

ساروا بِقَلبي وأودَعوا شَجَنًا أهلُ المطايا وأوحشوا الوطنَا
يا دارُ فيك الحبيب أم ظعنَا أين الذي فيك كان لي سكنَا
أجابتِ الدارُ وهي باكيةٌ وآحَربَا صرتُ للظبا وَطنَا
ناديتُ حاديهم وقد رَحَلَ الركْبُ أقيما وأعقلا البُدُنَا
أجابني والدموعُ جاريةٌ من ذا قتيل الفِراق؟ قلت: أنا[1]

تستعير الشاعرة سير الإنسان لقبلها، ومقصدها بأن صار هذا الركب بمحبوبها، وأودعوا قلبها حنيناً وشوقًا بسبب فراقه وإحساس الحزن والوحدة والوحشة لعموم موطنها، وغرضها من هذا التشبيه بأن عالمها بأسره قد أوحشه غياب من سار معهم، وتسأل الدار عن من كان يسكنها لعله يخرج من جنبات حجراتها، وتستعير للدار المقدرة على وصف حالها من البكاء فتخبرها بأنها أصبحت مهجورة خالية تسكنها الظباء، وعادت تنادي قائد القافلة وتطلب منه أن يقيم وأن يحط الرحال فلا يفرق بينها وبين محبوبها، ليشفق على حالها ويشاركها البكاء فيسألها عن قتيل الفراق الذي قد يمنع ركبه من المسير لتجيبه بذاتها الحزينة الرافضة لفراق موطنها الذي يجسده ذلك الحبيب الراحل.

أما المسلك الآخر فيتجسد في الحنين إلى الوطن والمقام الذي تنشأ فيه المرأة، يؤكد حنينها ما تنفس به من شعر ملئ باللوعة والأسى عن تلك المشاعر وذكر موطنها وطبيعته كما يظهر في قول تماضر بنت مسعود بن عقبة أي ذي الرمة، وكانت قد تزوجت في مصر من الأمصار فحنت إلى وطنها:

---

(١) المستظرف من أخبار الجواري، جلال الدين السيوطي، ت: صلاح المنجد، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية، بيروت– لبنان،١٩٧٦م، ص ٢٠.

لعمري لجَمَّ من جــواء ســويقة أو الرَّملُ قد جُرَّتْ عليه ســيولُها
أحبُّ إلينــا مــن جــداول قريــةٍ تعوّض من روض الفلاة فَسِــيلهُا
ألا لَيْتَ شعري لا حُبسِتُ بقريــةٍ بقيّة عمر قــد أتاهــا ســبيلُها(١)

تفتتح الشاعرة أبياتها بالقسَم (لعمري)، لتؤكد الشاعرة شوقها وصبابتها لمواضع موطنها ومعالمه، فتأتي بمشهد الرمل وقد جرت عليه السيول الذي لا مقارنة بينه وبين جداول القرية المصنوعة في ناظرها، فمن اعتــاد البادية ورياض الفلاة ومنظر السيل يشق طريقه في رمالها، فترجو أن تعــود إليهــا وتسكنها فيما بقي لها من العمر ليرتوي حنينها لتلك الديار، فتــرفض حيــاة القرى وحبس البناء، دافعها لذلك حنينها إلى موطنها الفسيح.

وتستخدم الشاعرة دالة التمني (ألا ليت شــعري) بمعنــى أن الشــاعرة تتمنى لو كانت تعرف ما ستلاقيه من تباريح الغربة والشعور بالحبس لبقيــت في ديارها ولم تخرج منها .

---

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ت: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،٢٠١١م، ج٣، ص ٢٨٧.

المبحث الثاني: الدافع الأخلاقي

الأخلاق والقيم هي ثقافة المجتمع وتقاليده وأعرافه، يحافظ عليها أفراده ويلتزمون بها، وتعود إلى التمسك بالوازع الديني، وكيف في مجتمع كثر فيه المجون والغناء وبذخ المعيشة وترف الحياة خاصة عند الخلفاء والولاة، والاختلاط بالثقافة الأخرى(١)، فنجد رفض المرأة يظهر في تمسكها بقيمها ودينها فنجدها تبتعد عن الملذات، وتزهد في متع الحياة وتجد في الخلوة للعبادة راحتها، فتنظم الأشعر في الذات الإلهية وسعيها للتفرغ للعبادة والنسك، كما ظهرت فئة من العابدات، ولعل أشهرهن الناسكة البصرية رابعة العدوية التي رفضت الزواج من الحسن البصري عندما عرض لخطبتها فردته لزهدها في الحياة ورغبتها في الخلوة لعبادة الله فأنشدت:

راحتي يا إخوتي في خلوتي ... وحبيب دائمًا في حضرتي
لم أجد لي عن هواهُ عوضًا ... وهواهُ في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه ... فهو محرابي إليه قبلي
إنْ أَمتْ وجدًا وما تم رضى ... وأعنائي في الورى واشقوتي
يا طبيبَ القلب يا كلَّ المنى ... جدْ بوصلٍ منك يشفي مهجتي
يا سروري يا حياتي دائمًا ... نشأَتي منك وأيضًا نشوتي
قد هجرت الخلق جمعًا أَرتجي ... منك وصلًا فهو أقصى منيتي(٢)

---

(١) يُنظر: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص٤٤.

(٢) معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام، عبد مهنا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت –لبنان، ١٩٩٠م، ص٩١. ينظر: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ت: بشير يموت، المطبعة الوطنية، الطبعة الأولى، بيروت– لبنان، ١٩٣٤م، ص١٥٢.

فترى الشاعرة أن لذتها وقمة راحتها في خلوتها إلى العبادة والتقرب إلى ربها، فهي تهوى الذات الإلهية من دون البشر، فرضاه غاية أمانيها ولا تريد ما يشغلها عن ذلك، فسعادتها وسرورها بين يدي الله، فقد هجرت الخلق جميعًا وارتضت بوصال بربها غاية وبعدت عن لهو الحياة فكل رجائها التقرب إلى خالقها، ونجد في توظيفها لأسلوب النداء المتكرر (يا طبيب القلب – يا كل المنى– يا سروري – يا حياتي) ما يدل على تعلق الشاعرة بالذات الإلهية، والتقرب إليها، ورفض كل الخلق في سبيل مرضاة الخالق عزَّ وجلَّ.

وهناك نماذج أخرى تزهد في الحياة وتبتعد أن الذنوب مخافة من الله مع تقدم السن فتخشى أن تقبض وهي على معصية. ومنهن خزامى جارية الضبط المغني التي كانت تنادم عبد الله بن المعتز، فقد راسلها مرارًا فتأخرت عنه فكتب إليها:

رأيتُكِ قد أظهرتِ زُهْدًا وتوبةً فقد سَمُجَتْ من بعد توبتِك الخمرُ

فأهديتُ وَرْدًا كي يُذَكِّر عِيشةً لمن لم يُمَتِّعْنا ببهجتها الدهرُ

فأجابته:

أتاني قريضٌ يا أميري مُحَبَّرٌ حَكي ليَ نظمَ الدُّرِّ فُصِّلَ بالشَّذْرِ

أأنكرتَ يا ابنَ الأكرمينَ إنابتي وقد أفصحتْ لي ألْسُنُ الدَّهرِ

وآذَنَني شَرْخُ الشَّبابِ ببَيْنِه فيا ليتَ شعري بعد ذلك ما

يعاتب ابن المعتز الجارية أنها بعد أن صرحت بزهدها وتوبتها عن مجالس المنادمة والخمر فقد أصبحت هذه المجالس من دون مذاق، وفقدت بهجتها ومتعتها، لتجيبه بأنها جاءها نذير من العمر وظهرت عليها علامات الكبر في السن، وتتعجب بأسلوب الاستفهام من إنكاره لإنابتها وتوبتها، فقد

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ت: إحسان عباس، ج ١٣، ص ٢٢٣.

ولى شبابها وبدأ العمر ينقضي فإذا ما قبضت على ذنب ماذا سيكون لها من عذر يحميها من العذاب والعقاب على تقصيرها وارتكابها المعاصي، فقد هجرت هذه المجالس زهدًا فيها، ومخافة من الله، وحرصًا على خاتمة أيامها التي بعدها ستلقى الرفيق الأعلى.

وقد تنذر المرأة ما تبقى من حياتها في سبيل العبادة والزهد في متع الحياة ورغباتها وتتناسى حاجاتها، ولكن قد يكون المكان باعثًا على الحنين إلي الغائبين، فإذا ما نزلت الشاعرة بموطن بديع هيج مشاعرها واستحضر مفارقيها، وليس شرطًا أن يكونا قد التقيا فيه، ولكن تتلمس من الطبيعة مشاعر قد تغافلت عنها وتناستها ليجدد هاجس الذكرى، كما جاء في أبيات شهدة بنت أحمد بن الفرج بن عمر الأبري الدِّينَوَريَّة، وقد كانت ذات دين وورع وعبادة:

مِلْ بي إلى مجرى النسيم العاني ... واجعل مقيلَك دوحتي نعمان
وإذا العيونُ شَنَنَّ غارةَ سِحْرها ... ورمَين عن حِصنِ المنون جوان
فاحفظ فؤادَك أن يُصابَ بنَظْرةٍ ... عَرَضًا فآفة قلبِك العينانِ
من كل جائلةِ الوشاحِ يَهُزُّها ... مرحُ الشبابِ اللدن هَزَّ البانِ
بيضٌ غَنينَ بحسنهن عن الحلى ... ولذاك أسماء النساء غَوانِ
سكنوا العقيق وحركوا بغرامهم ... قلبًا يكاد يطير بالخفقان
حَمَّلْتُه ثقلَ الهوى فلم يطق ... فأطعته في طرحه وعصاني
سلبَتْه يوم الدوحتين طليعةٌ ... نزلت بهذا الحي من غطفان
حتامَ تُفْرِطُ في الصبابة أضلعي ... وتُلحُّ من عبراتِها أجفاني؟ !
وإذا تبسم ثغرُ برقٍ مُنْجِدٍ ... أغرى دموعَ العين بالهملان
يا حاديَ النكْرانِ هل لك روحةٌ ... بالعمر عند مسارح الرُّعيانِ؟

فتــذَكِّر الناســين عهــدي بــالحمى فجديــده أبــلاه مــن أبلانــي
وذكــرت ميــدانَ الــوداع فأرســلت عيني إلى أمــد البكــاء عنــاني
لم أخْشَ من ظمأ الحوادث إذ عــرت ومعــي نظيــر الجــدول الريــان
إن مسّــني ســغَبٌ قَرانــي غَرْبُــه أو قلَّنــي ظمــأ فــرى فســقاني
وإذا الســيوف تحــدثت لجفونهــا فحــديثها منــه بــأحمرَ قــاني[1]

تطلب الشاعرة من محدثها أن يميل بها حيث يهب النسيم العليل، لتقضي القيلولة في ظل دوحتي النعمان، لتمتع ناظريها بسحر الطبيعة، وتوصيه بأن يحفظ قلبه ويحذر من سهام نظرة قد تصيبه في هذا المكان، فآفة القلوب هــي العيون الساحرة، وجائلة في هذه الدوحة يداعب وشاحها هذا النسيم ممشــوقة القوام، غضة الغصن في ريعان شبابها استغنت بحســنها وأثــارت بتثنيهــا القلوب، سكنوا مكاناً مثل هذا الوادي، فعندما مرت بمكــان يضــاهي مكــان أحبتها، طرت لها ذكرى اللقاء، فعاد قلبها للخفقان وتجددت الأحــزان، فقــد حملت هذا الهوى في قلبها متناسية إياه، ولكن لم تســتطع أن تنســى، فكلمــا تهيأت لها مواضع هاجت ذكراهم، فتخاطب نفسها مستنكرة طــول أحزانهــا وإفراطها في البكاء كلما لاح برق وهمل المطر، حتى متى يبقى هذا الحــب؟ لقد ضاقت بهذا الفراق، فكل ما حولها يغريها بالبكاء ويعيــد لهــا الــذكرى، فتناشد قائد القافلة الراحلة أن يمر على مسارح الرعيان ويسألهم عن محب لها نسى العهد الجميل الذي أبلاه الفراق والهجر لعله يتذكر، وتعود إلى هــاجس الذكرى ولحظة الوداع، فتفيض العينان لتبكي وتبكــي مــن حولهــا وجــات واستعارت عنان الخيل عندما يُرسل فتندفع بكل قوة لجريان دموعها، وتصف

(١) نزهة الجلساء في أشعار النساء، جلال الدين السيوطي، ت: عبد اللطيف عاشور، ص٥٤-٥٦.

حالها بأنها لم تعد تبالي بالحوادث التي قد تعتريها، ولا تشكو جوعًا ولا عطشًا، وإنما تكتفي برؤية ذلك الجدول فترى في انعكاسه نظرات ذلك المحب بدموع دامية، فهناك شعور عميق لدى الشاعرة برفض متع الحياة من طعام وشراب، فقد استولى عليها حزن الفراق الذي طال أمده، وأرهقها طيف الذكرى الذي يظهر في كل مكان يجمع بينه وبين مكان لقياهما شبه يدفعها زهدها في كل شيء ما عداه.

وتحمل أبيات الشاعرة دلالات على مغالبتها لرغبات النفس من خلال وصاياها بحفظ الفؤاد عن الهوى وغض البصر؛ حتى لا يميل القلب ويهيم في أحزان الفراق كلما طرأت له الذكرى.

ويوجد دافع أخلاقي آخر لرفض المرأة العباسية، وهو العفاف والحرص على الشرف، والحرص ليس قصرًا فقط على الحرائر بل حتى الجواري، وعبرن عن رفض التعريض بهن على نحو الجارية دنانير، وكان سيدها محمد بن كناسة، وكانت دنانير شاعرة فصيحة عفيفة شريفة وكان له صديق يكنى بأبي الشعثاء كان عفيفًا مزاحًا يدخل إلى ابن كناسة يسمع غناء جاريته ويعرض لها بأنه يهواها فقالت له:

لأبي الشعثاء حبٌّ باطنٌ ... ليس فيه نَهْضَةٌ للمتَّهمْ

يا فؤادي فازدَجِر عنه ويا ... عَبث الحبّ به فاقعُدْ وقمْ

زارني منه كلامٌ صائبٌ ... وَوسيلاتُ المحبّين الكَلِمْ

صـــــائدٌ تأمنُـــــهُ غِزْلانُـــــه مثلَ مـــا تـــأمنُ غِـــزْلانُ الحَـــرَمْ
صلِّ إن أحببتَ أن تُعطـــى المنـــى يـــا أبـــا الشَّـــعْثاء لله وصُـــمْ
ثُمَّ مِيعـــادُك يـــوم الحشْـــرِ فـــي جَنّـــةِ الخلـــدِ إنِ اللهُ رحِـــمْ
حيـــثُ ألقـــاكَ غلامًـــا ناشـــئًا يافعًا قـــد كُملـــت فيـــه الـــنِّعَمْ[١]

تصرح دنانير بمكانة أبي الشعثاء منها، فهي تكن له حبًّا عفيفًا بعيدًا من المحرمات، وتطلب من فؤادها أن يحجم عن ذلك العشق، وأن يقف عن حدود لا يتعداها، أصاب قلبها بكلام التعريض لها بهواه، وهذه طبيعـــة المحبّـــين، ولكنها تعلم منه أنه لن ينال من عرضها، فهي تأمنه كما تأمن غزلان الحـــرم الصيد، فتشبه الشاعرة نفسها بالغزال الذي يعيش في وسطٍ يملؤه الأمن وهـــو في قرب أبي الشعثاء، كما تعيش غزلان الحرم الآمنة، وتخيرت الشاعرة هذا التشبيه، لتظهر مشاعرها تجاه محبوبها من إحساس الأمان والانتماء لكنفـــه، وتكثر من الألفاظ الدينية التي تحثه فيها على العبادة، وتطلب منـــه أن يلجـــأ للصلاة لينال غايته ويكبح رغباته بالصيام والعودة إلى الله وفعل الطاعـــات، لعلنا نجتمع في جنة الخلود، وقد عدت لشبابك يافعًا كأنها لا ترضـــي لـــه أن يأخذها جارية مملوكة، فهو منها بمنزلة تريد أن تلقـــاه وقـــد تحـــررت مـــن عبوديتها، فنجدها ترفض الهوى والخضوع للرغبات، وتحجم عن ذلك لعفتها وتمسكها بشرفها، وإن بقيت دون عشق إلى الممات.

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ت: إحسان عباس، ج ١٣، ص ٢٤٢-٢٤٣.

المبحث الثالث: الدافع الاجتماعي

مرت الدولة العباسية بالكثير من الثورات والفتن التي كان لها عميق الأثر في المجتمع العباسي، وكذلك استبداد بعض الخلفاء بالحكم وظهور طبقات وفوارق بين علية القوم وعامتهم، فظهر الفقر والحاجة، ولم تقف المرأة مكتوفة الأيدي، وخاصة التي حباها الله بالشعر، فجعلت من شعرها وسيلة للاستجداء رفضًا للفقر والعوز شأنها شأن الشعراء لعلها تظفر بعطايا الخلفاء والولاة، كما فعلت الشاعرة حجناء بنت نُصيب الشاعر الحبشي، تلك الشاعرة التي كان لها مدائح في المهدي، ومنها قولها:

أميرَ المؤمنين ألا ترانا ... كأنّا من سواد الليل قير
أمير المؤمنين ألا ترانا ... خنافس بيننا جُعَلٌ كبير
أمير المؤمنين ألا ترانا ... فقيراتٍ ووالدنا فقير؟!
أضرَّ بنا شقاء الجَدّ منه ... فليس يَميرنُا في من يَمير!!
وأحواض الخليفة مُتْرعات ... لها عَرْفٌ ومعروف كبير
أميرَ المؤمنين وأنت غيثٌ ... يعُمُّ الناسَ وابلُه غزير
يُعاشُ بفضلِ جُودكَ بعد موتٍ ... إذا عالوا وينجبر الكسير[1]

تناشد الشاعرة الخليفة المهدي بأن ينظر إلى حالهن مع والدهن الكبير، وقد أصابهن الفقر والحاجة وأضر بهن ضعف الحال وقلة ذات اليد، والخليفة قد عرف بالعطاء والكرم وفعل المعروف، وتشبهه بالغيث الغزير والعطاء المغدق، فمن تقربه منك وتكرمه يأمن شظف العيش إلى الممات ويجبر كسر حاجته، فأكرمها. وكذلك دخلت الحَجناءُ على العبَّاسة بنت المهديّ فأنشدتها شعرًا فأمرت لها بثلاثة آلاف درهم، وذلك في قولها:

(١) نزهة الجلساء في أشعار النساء، جلال الدين السيوطي، ت: عبد اللطيف عاشور، ص ٣٩.

أَتيناكِ يا عبّاسةَ الخيرِ والحيا وَقَد عَجَفَتْ أُدْمُ المَهاري
وَما تَرَكَتْ مِنّا سِوى رِمَّةٍ مِنَّا مِن الجَهدِ
فَقالَ لَنا مَن ينصحُ الرأي وَقَد وَلّتِ الأموالُ عَنَّا فَقَلَّتِ
عليكِ ابنةَ المهديّ عُوذي ببابها فَإنّ مَحلَّ الخيرِ في حيثُ حلَّتِ[1]

تشكو الشاعرة حالها ورحلتها حتى وصلت إلى العباسة، وبعد نداء الاستغاثة المقترن بصفة الخير والجود، فقد دميت وكلت راحلتهم حتى أوصلتهم لغايتهم، فقد أصابتهم السنون وأجهدتهم حتى أصابهم الضعف والعجز، إلى أن نصحهم صاحب الرأي بعد أن فقدوا مالهم وضاقت بهم الحال بأن يقصدوا ابنة المهدي ويستغيثوا ببابها فهي لا ترد المحتاج وعرفت بكرمها، فالشاعرة ترفض الاستسلام للفقر وتوظف شعرها للتكسب ونيل المال لسد حاجتها وعوزها.

ويوجد صنف آخر للدوافع الاجتماعية ترتبط بالعلاقات الأسرية في الخلافة العباسية فقد تضحي الأم بثأر ولدها في سبيل وحدة المجتمع الإسلامي وبقاء الخلافة في البيت الحاكم، فترفض الفرقة بين المسلمين وتسكت عن قتل ابنها كما فعلت زُبيدة بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العباسية عندما قُتل ابنها محمد الأمين دخل إلى زبيدة بعض خدمها فقالوا لها: "ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد؟ فقالت: ويلك!! وما أصنع؟ فقال: تخرجين فتطلبين بثأره، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان. فقالت: اخسأ لا أم لك ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال؟ ثم أمرت بثيابها فسودت ولبست مسحًا من شعر ودعت بقرطاس ودواة وكتبت إلى المأمون:

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ت: إحسان عباس، ج ٢٣، ص ٢٨.

لخيرُ إمَامٍ قامَ من خيــر عُنْصُــرِ وأَفْضَلِ رَاقٍ فــوق أعــوادِ منبــرِ
ووارثُ علــمِ الأولــينَ وفخــرِهم وللملك هم المأمونُ من أمِّ جعفــرِ
كَتَبْتُ وعينــي تســتهلُّ دموعُهَــا إليك ابــن عمــي مــن جُفُــوني
أُصبْتُ بأدنى الناس منــك قرابــة وَمَنْ زال عن كبدي فقَلَّ تَصــبّري
أتى طاهرٌ، لا طَهَّــرَ اللهُ طــاهرًا، وما طــاهرٌ مــن فِعلــه بمُطَهَّــر
فأبرزني مكشوفة الوجه حاســرًا وأنهــبَ أمــوالي وخــرّب أدؤري
يعزُّ على هارون مــا قــد لَقِيتُــهُ وما نالني من ناقص الخلق أعور
فإن كان قد أسْدَى لأمْــرٍ أمرتــه صبرتُ لأمــرٍ مــن قــدير مُقــدَّر

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ثم قال: اللهم إني أقول كمــا قــال أميــر المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه لما بلغه قتل عثمــان: والله مــا قتلت، ولا أمرت، ولا رضيت. اللهم جَلِّل قلب طاهر حزنًا."(١)

تحمل الأبيات عبارات لا تدل على العداء للخليفة الذي تولى الحكم بعد مقتل ابنها وخرج عليه، وإنما نجد أن معجم الشكوى والاســتعطاف (عينــي تستهل دموعها، جفوني ومحجري، أصبت، كبدي، قل تصبري، مــن فعلــه، أبرزني مكشوفة، نهب أموال، وخرب أدؤري، يعز على هارون، ما نــالني) فقد وجهت زبيدة رسالة إلى الخليفة المأمون تقر له بالخلافة بعد ولــدها بــل وتمدحه بأنه خير من يرقى منبر الخلافــة ووراث الأولــين وفخــرهم، ثــم تستعطفه بوصف دموعها وتشكو له رزئها ومصيبتها في فلذة كبدها، وتهجو طاهر بن الحسين الذي أمر بقتل محمد الأمين وانتهاك حرمة قصرها ونهــب

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، المكتبة العصرية، راجعه: كمال حسن مرعي، الطبعة الأولى، بيروت– لبنان، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٣٤١.

أموالها، مذكرة إياه بالقرابة، وأن أباه هارون الرشيد لن يرضى ما حل بها من قائده، وإذا هو ما أمره بذلك فليس لها حيلة غير الصبر على الأقدار، ولن تفعل غير ذلك وفي رد المأمون عليها تصريح بأن لم يأمر بذلك ولن يرضه ودعا على طاهر بن الحسين بأن يملأ قلبه الحزن، ولما أوقعه في قلبه من الحزن على أخيه وأهله.

وقد رفضت زبيدة بنت جعفر أن تطالب بثأر ابنها، لأنه قد ينحاز إليه الكثير من العرب وتقوم فتنة بينهم، لذلك رفضت ما أشار به عليها خدمها وألجمتهم، وأقرت بالمأمون خليفة يدفعها لذلك حرصها على وحدة المسلمين، وعدم تشتتهم بالفتن والخلافات.

الخاتمة

تعالج دراسة الرفض في شعر المرأة العصر العباسي أنموذجًا من شعر المرأة من خلال ثلاثة محاور رئيسة، وهي:

أولًا: الدافع الإنساني ويتضمن المشاعر الإنسانية من الحزن المرتبط بالفقد، والعشق المهلك، والحنين الذي تجسد في الإنسان والموطن.

ثانيًا: الدافع الأخلاقي ويشتمل على القيم الأخلاقية التي تدفع المرأة لشعر الرفض من زهد وعفاف.

ثالثًا: الدافع الاجتماعي، يتجسد في روح المجتمع العباسي ورفض الفرقة بين المسلمين والحاجة إلى المال والفقر.

وقد استطعنا من خلال هذه الدراسة التوصل إلى عدد من النتائج يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١. استسلام بعض الشاعرات للحزن ورفض متاع الحياة بعد فقد ذويهم وعدم تقبل فكرة الفراق، والتنفيس عن المشاعر المكبوتة من خلال الإبداع الشعري.

٢. المرأة التي تعاني تباريح العشق وفراق الحبيب لموت أو هجر تعبر عن رفضها هذا الواقع وتتلاشي ذاتها في الأسى والأحزان المؤدي بها إلى الهلاك والفناء لتلحق بمن فارقوها من الأحبة.

٣. تبرز ظاهرة الحب الإلهي لدى بعض الشاعرات ورفض الزواج أو مطامع الحياة ليجدن راحتهن في الخلوة للنسك والعبادة والتقرب إلى الله.

٤. من مظاهر الرفض عند المرأة في عصر شاعت فيه الفتن والخلافات التخلي عن فكرة الانتقام في سبيل الحفاظ على لحمة الدولة الإسلامية، وعدم التفرقة بين المسلمين، والعمل على التماسك وتقوية بنيان الأمة.

٥.نجد المرأة في العصر العباسي ترفض الرذيلة والتعريض بها، والتمسك بالعفاف والطهر؛ انطلاقًا من تمسكها بالدين، بالرغم من انتشار الغناء والمجون والمعازف وغيرها.

٦.توظف بعض الشاعرات في العصر العباسي شعر المدح واستجداء الخلفاء والولاة لنيل العطايا والخلاص من الحاجة يدفعها إلى ذلك رفضها للفقر.

المصادر والمراجع:

١. أخبار النساء، ابن الجوزي، ت: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، ١٩٨٢م.

٢. أصول علم النفس، أحمد عزت راجح، دار الكاتب العربي، الطبعة السابعة، القاهرة- مصر، ١٩٦٨م.

٣. الإماء الشواعر، أبو الفرج الأصفهاني، ت: جليل العطية، دار المعارف، الطبعة الثانية، سوسة- تونس، ١٩٩٨م.

٤. البواعث النفسية في شعر الفرسان عصر ما قبل الإسلام: دراسة نفسية تحليلية، ليلى نعيم الخفاجي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، العراق، ٢٠٠٢م.

٥. تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثامنة، القاهرة- مصر، ١٩٦٦م .

٦. الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي- دراسة، عبدالقادر فيدوح، مطبعة اتحاد الكتاب العربي، الطبعة الأولى، دمشق- سوريا.

٧. التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار العودة، د.ط، بيروت- لبنان، ٢٠١٤م.

٨. الشعر الجاهلي دراسة في تأويلاته النفسية والفنية، سعيد حسون العنبكي، دار دجلة، الطبعة الأولى، عمَّان- الأردن، ٢٠١٠م.

٩. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ت: بشير يموت، المطبعة الوطنية، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، ١٩٣٤م.

١٠. الشعر النسائي في أدبنا القديم، مي يوسف خليف، مكتبة غريب، الطبعة الأولى، القاهرة- مصر، ١٩٩١م.

١١.مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، المكتبة العصرية، راجعه: كمال حسن مرعي، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، ٢٠٠٥م.
١٢.مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون. الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ت: كاترمير، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ج١.
١٣.المستظرف من أخبار الجواري، جلال الدين السيوطي، ت: صلاح المنجد، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية، بيروت -لبنان،١٩٧٦م.
١٤.المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، ١٩٨٢م، الجزء الأول.
١٥.معجم البلدان، ياقوت الحموي، ت: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان،٢٠١١م، ج٣.
١٦.معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام، عبد مهنا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت -لبنان، ١٩٩٠م.
١٧.الموجز في التحليل النفسي، سيجموند فرويد، ترجمة سامي محمد علي، وعبد السلام القفاش، دار المعارف، القاهرة- مصر، ١٩٦٢م.
١٨.نزهة الجلساء في أشعار النساء، جلال الدين السيوطي، ت: عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، الطبعة الأولى، القاهرة – مصر، ١٩٨٦م.
١٩.نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، ابن الساعي الخازن البغدادي، ت: مصطفى جواد، دار المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة- مصر، ١٩٦٨م.

فهـرس الموضـوعـات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	الملخص	٤٥٧
٢-	Abstract	٤٥٨
٣-	مقدمة	٤٥٩
٤-	التمهيد	٤٦٤
٥-	المطلب الأول: معنى الدوافع.	٤٦٤
٦-	المطلب الثاني: أهمية الدوافع في تأصيل ظاهرة الرفض.	٤٦٥
٧-	المبحث الأول: الدافع الإنساني	٤٦٨
٨-	المبحث الثاني: الدافع الأخلاقي	٤٧٨
٩-	المبحث الثالث: الدافع الاجتماعي	٤٨٤
١٠-	الخاتمة	٤٨٨
١١-	المصادر والمراجع:	٤٩٠
١٢-	فهـرس الموضـوعـات	٤٩٢